http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1613) السنة السابعة -الاحـد (27) ايلول 2009

تأكل الحصة التموينية ..تعض الأطفال ..تسمم الأطعمة .. وتنشر الأمراض الغريبة

الجرذان تغزو مدينة الصدر .. والطاعون على أبواب البيوت !

قد لا يصدق القارئ بأن ابناء مدينة الصدر قد تلتهمهم الجرذان ذات يوم !
وربما ستقضي عليهم تدريجيا في احسن التصورات والتوقعات ، عشرات الالاف من القوارض اتخذت من قاع ارض المدينة مستوطنات لها ، تتناسل فيها وتتكاثر وتتغذى وتسمن ، فصار بعضها بحجم قطة او هر (مطابخ) ! ربما يظن البعض بانه موضوع للمزحة او الطرفة او للتسلية ، بل هو صورة حية للواقع الميداني الراهن الذي يعيشه ابناء المدينة المكتظة بالسكان والنفايات واكداس المزابل والمياه الاسنة الناجمة عن طفح شبكة الصرف الصحي وانعدام الخدمات ، والتي تعد بيئات ملائمة لانتشار الحشرات الضارة والناقلة للامراض ، ناهيك عن القوارض والفئران وحتى القراد !

بغداد / شاكر المياح
تصوير / مهدي الخالدي

جرذان سمان تدب مسرعات بين ممرات وزوايا مساكن الفقراء (اسميتها مساكن جزافا ، فهي لا تشبه الدور او البيوت او المنازل او المساكن) ، هي اقرب الى المأوي ، واخريات يتراقصن ليلا فوق الارائك واسرة النوم ، يتلاعبن باعصاب وامزجة النائمين ، كبارا وصغارا ، ذكورا واناثا ، فتفسد عليهم متعة الرقاد ، وتثير الهلع في نفوس الاطفال الصغار . هي قصة ليست من نسج الخيال ، ولا فبركة اعلامية يراد منها اثارة الضجيج ، بل هي حقيقة ناصعة لا تقبل اللبس او التأويل والميدان هو الحكم .

ولنستمع الى ما اختزنه جهاز التسجيل الذي حملناه معنا في جولتنا هذه ، ثم نقرأ ما ذكره ابناء المدينة وهم يروون قصة الجرذان :

الموظف الشاب (احمد ناجي) الذي كان دليلنا للمناطق المبتلاة بالقوارض ذكر ان الجرذان تنشط ليلا فتخرج بالمئات لتملأ المساكن العشوائية التي شيدها مواطنون مهجرون من احياء شتى ومن محافظات مختلفة ، خذ مثلا ، عائلة زوجتي هجرت من مدينة الحبانية في محافظة الانبار ، وبسبب كثرة وخطورة الجرذان ، فاننا لا نصطحب اطفالنا عندما نروم زيارة اهلها ، وفي احدى المرات (وتلك كانت غلطتي امضينا ليلة في دارهم فتعرض طفلي (سمير) الى عضة جرذ وهو يغط في نوم عميق فصرخ صرخة افزعتنا جميعا اضطررنا على اثرها الى نقله الى المستشفى وبعد الكشف عليه ، اشار علينا الطبيب الخافر الى ضرورة عرضه على الطبيب المختص . وفي اليوم التالي راجعنا المستشفى مرة اخرى وتم فحصه من قبل الطبيب الاخصائي الذي اخبرنا بانه قد يصاب بالتهاب حاد في الامعاء اذا لم تكتمل دورة العلاج .

حكاية اخرى عن هجمات الجرذان

في حي (الجولان) دخلنا احد البيوت فاستقبلتنا سيدة طاعنة في السن بالترحاب تدعى (ام فاضل) التي اوضحت بان افراد اسرتها لا ينعمون بالنوم ليلا خشية تعرضهم لهجمات شرسة من قبل مجاميع متعاقبة من الجرذان التي تتسلق اسرة النوم فتعض كل من يعترضها ، وانا شخصيا تعرضت لعضات مؤلمة كثيرة وما زلت اعاني من امراض عديدة ومنها الحمى الليلية رغم مراجعاتي المتكررة للمستشفى ، وما ان استكمل علاجي حتى تعود تلك الحمى مع الم لا يطاق في مفاصلي ، ناهيك عن العضات التي تعرض لها احفادي الصغار وقبل يومين ، وبعد السحور تعرضت لعضات عديدة ، احسست حينها وكأني صعقت بتيار كهربائي (على حد وصفها) وكانت من الشدة بحيث افقدتني السيطرة على حركة يدي وساقي (واثناء حديثها كان مصورنا مهدي الخالدي يتربص بالجرذان امام جحورها لعلها تخرج فيصورها ، ولما يئس اضطر الى سكب الماء فيها لارغامها على الخروج ، غير انها كانت اشطر منه فربما اتخذت طريقها الى ممرات احتياطية جعلت منها ملاجئ تختبئ فيها حينما يدهمها الخطر) .

وتواصل (ام فاضل) حديثها فتقول :

اكثر ما نخشاه هو اصابة اطفالنا بامراض غريبه جراء عضات الجرذان التي تتزايد اعدادها باضطراد لا سيما ونحن عاجزون عن القضاء عليها او مواجهتها ، فضلا عن التهامها الطحين الذي ارغمنا على تخزينه في براميل معدنية ،وكذلك السكر والرز ، وفي احد الايام استلمنا (كيس تمن) زنة ٥٠ كيلو غراما وعند الصباح لم يتبق منه سوى ما يقرب من عشرة كيلو غرامات فقط ، اذ التهمته الجرذان ليلا ، ولك ان تتصور اعدادها التي اتت على ٤٠ كيلوغراما في ليلة واحدة .

الم تكافحوها بالسموم ؟

استخدمنا جميع انواع السموم ، وفي كل مرة لا يموت منها سوى خمسة او ستة ، انها تتكاثر بسرعة (تحت الكنتور ، والبوفيه وفي كل زوايا البيت ، ولا نعرف بموت احدها الا بعد تفسخه وانبعاث الروائح الكريهة) .

وفي مداخلة لاحد ابنائها ذكر فيها بانهم راجعوا الكثير من المسؤولين عن الدوائر الخدمية والصحية في المدينة ولم تتم الاستجابة المطلوبة ، بل تركونا وحدنا نصارع جحافل الجرذان التي ما فتئت تلعب معنا لعبة (البرينجي) (طائر مائي يغوص لدقائق ثم سرعان ما يظهر في مكان غير متوقع من النهر) فضلا عن المجاري السيئة التي يشكل طفحها المستمر بيئة ممتازة لعيش وتكاثر الجرذان والفئران والحشرات الضارة .

(دخلنا احدى غرف البيت فوجدناها تنز صديدا ذا لون اخضر بسبب طفح المجاري) .

ويسترسل قائلا : لمن نشكو وضعنا البائس هذا ؟ ،لا احد يعير اهتماما لقضيتنا اذ طرقنا كل الابواب وليس امامنا سوى الشكوى لله الواحد الاحد عله يمن علينا بالخلاص من محنتنا هذه ، لم نحصد سوى الوعود (والسين المستقبلية ولم نحظ الا (بسوف واخواتها الحاضرات) .

المواطن (عباس لفتة ماهود) اوضح بانه اصيب بمرض نتيجة تعرضه لعضات متكررة وان الاطباء عجزوا عن تشخيصه حتى الان بالرغم من مراجعاته الدائمة للمستشفيات ، واجراء الكثير من التحليلات المختبرية وانفق كل ما لديه من مال وهو يعاني الان من ضعف نظر شديد قد يؤدي به الى العمى التام .

يستجيرون من الرمضاء بالنار

في بيت من اشباه البيوت ، وفي زقاق مماثل للزقاق الذي كنا فيه التقينا السيدة الشابة (ام باسل) التي قالت : لو كان لنا سكن بمساحة ٢٥ مترا مربعا لهجرنا هذا المكان الى الابد ، ونحن الان كمن استجار من الرمضاء بالنار لاضطرارنا للتعايش مع الجرذان وتحمل آذاها وما تحدثه من امراض واضرار في اثاثنا ومقتنياتنا بعد تهجيرنا من منازلنا ، ناهيك عن مظهرها المقرف والمرعب حينما تدهمنا ليلا فتكتسح الغرف وكل مكان في البيت ، وهي لا تترك مكانا الا وتعبث به وتفسده ، برازها يسمم الاطعمة ، والحشرات التي تعلق بجلودها تتسبب بامراض جلدية قد تصل في بعض الحالات الى التقرح والقيح ، المجاري المتهالكة تزودها بالماء والغذاء ، وفي غاراتها الليلية علينا تستهدف مؤن عيشنا وغذائنا ، لا يسلم من فتكها حتى ارغفة الخبز ، ولإيقاف زحفها فإن اولادنا يعملون لساعات متأخرة من الليل لتصريف المياه الناجمة عن طفح المجاري .

(وقبل ان نصل الباب الرئيسي للبيت ، لمحنا فتحة دائرية قطرها بحدود ٥٠ سم مربعاً مغطاة بالواح معدنية وعندما ازحنا هذه الالواح وجدناها تغص بالمياه الاسنة وقد طفت فوقها بقايا غائط بشري ، ومكونات بايلوجية وعضوية جعلتنا نشعر بالاشمئزاز ، حتى ان مصورنا كاد ان يتقيأ وتنبعث منها روائح كريهة لا تحتمل) .

وتواصل (ام باسل) حديثها فتقول :

مللنا حياة البؤس والشقاء هذه حتى اننا كرهنا انفسنا ، ولطالما تمنينا الموت في كثير من الاحيان ، وعند اشتداد شراسة الجرذان يكتنفنا الخوف والرعب وليس امامنا سوى مستقبل مجهول ، لا احد يجيرنا او يستمع لصراخنا وصرخاتنا واستغاثاتنا المتكررة ، وكأن اصواتنا تتلاشى بين كهوف وفلوات ، نحن مطلوبون ومحبوبون في الانتخابات فقط ، لا يزورنا احد الا قبل بدء الانتخابات ، حينذاك تسمع الوعود الوردية وبعد ذلك يصاب المنتخبون بداء الجرذان ؟؟

المواطن (جاسم جبير) قال : هربنا من جحيم الايجارات وتعسف المؤجرين ، لنقع في جحيم آخر اشد وطأة واكثر هسيسا واشتجارا . متخم بالبؤس والعذابات التي لا تطاق ، والموت الذي يتهددنا في ساعات الليل والنهار ، وكل يوم من ايام حياتنا الراهنة .

جرذان ملونة بحجوم مرعبة

ما زلنا في حي (الجولان) العشوائي حينما التقينا الشاب (عبد الامير عباس) الذي بدا متحمسا ومنفعلا وبعد ان انفرجت اساريره قال متهكما : كنت نائما ذات ليلة متناغما مع حلم جميل ، فاقترب مني ومن دون ان اعلم بمقدمه احد الجرذان المحترمين جدا (ليفاجأني بعضة عصفت بلبي وبحلمي الرائق) قضم لحمة من ابهام قدمي اليمنى فاطلقت صرخة استفاق عليها جميع افراد اسرتي فطلبت نقلي فورا الى اقرب مستشفى . ويسترسل وكأنه يحكي لنا طرفة فكهة : صرنا واياهن احبة ، لا نطيق فراقهن ، واظن انهن يستمتعن بمشاكستنا وايذائنا !! في بيت اخر التقينا المواطن (فاضل علوان) الذي عزا سبب كثرة الجرذان في المنطقة الى سوء شبكة الصرف الصحي وتكدس النفايات والازبال التي تمثل بيئة صالحة لتكاثر الجرذان والقوارض الاخرى ، وكثيرا ما راجعنا (البلدية) لمساعدتنا في معالجة طفح المجاري ، الا انهم لم يعيرونا اذانا صاغية ، ونادرا ما يرسلون لنا (السيارات الصاروخية) واذا ما حصل هذا فعلينا ان نجمع لهم مبالغ مالية قد تصل احيانا الى (١٠٠ الف دينار) (اينما حللنا كانت تحف بنا مجاميع الاطفال ، فقلت لمحدثي مازحا : انتم تتكاثرون كما الجرذان ، فضحك وقال : ماذا نفعل ، هذه سنة الحياة) .

نحن الان ازاء مشكلة حقيقية تتعلق بصحة اكثر من مليوني مواطن عراقي وببيئة المدينة بشكل عام تتمثل في وجود اعداد هائلة من الجرذان التي تلتهم الحصة التموينية والطعام وحتى الملابس ، فضلا عما تسببه من امراض بعضها فتاكة ، وربما سينتشر ذات يوم وباء الطاعون ، والدليل ان طفلي الرضيع ما يزال يعاني من نوبات ارتعاش في جسده بين اونة واخرى ، وناشد المسؤولين إصلاح المجاري وتنظيم حملات مستمرة لمكافحة القوارض والقضاء عليها .

امام بوابة مستوصف الامين التخصصي

ونحن بانتظار موافقة مدير المستوصف للاستئناس برأيه حول الاثار والاعراض الصحية والامراض التي تتركها عضات الجرذان ، جلسنا في غرفة الحراس الامنيين الذين حاورناهم بذات الموضوع فكان المتحدث الاول الحارس الامني (علي فاضل) الذي قال : الجرذان في مدينة الصدر (اشكال والوان ...كبار وصغار) . اما زميله (خالد عبد اللطيف) ذكر بان ارض المستوصف تحوي اكثر من الفي جرذ تنتشر ليلا لتملأ الساحات والغرف .

هل اخبرتم المدير والاطباء بذلك ؟

جميع منتسبي المستوصف يعلمون بوجود الجرذان تحت ارضه ، فهم يرون يوميا اعدادا ميتة منها وخاصة عند بدء الدوام الرسمي .

لا نستطيع فعل اي شيء لمكافحتها فهي تخرج من هذا البيت لتدخل آخر ، وتغزو هذا الحي ومن ثم تهاجر الى حي آخر وهكذا دواليك .

زميل لهما لم يذكر اسمه قال : قبل اسبوع من الان تعرض احد اطفالي لعضة جرذ ، ثم دلنا على مكامن وجحور الجرذان في ساحة المستوصف التي توسطتها بركة من مياه طفح المجاري بلون داكن تفوح منها رائحة نتنة تزكم الانوف فقلت في قرارة نفسي : (اذا كان هذا هو حال المشفى فكيف حال بيوت المساكين ؟) .

وبعد جهد ولأي مضنيين سمح لي بمقابلة مدير المستوصف الذي لم يشأ ان يذكر اسمه بل اكتفى بالقول : الاضرار التي تقع بفعل وجود القوارض هي اقتصادية بالدرجة الاساس ، فهي تقضم موجودات المخازن والمحال التجارية والمساكن فتتلفها ، واهم الامراض التي تسببها هي التهاب العقد اللمفاوية ، والتهابات الامعاء التي تحدثها فضلاتها الحاملة للجراثيم والميكروبات ويمكن مكافحتها عن طريق حقن جحورها بالسموم .

عضو المجلس البلدي في مدينة الصدر (كامل عبد راهي) قال : هذا الموضوع ليس جديدا على المدينة ، بل هو يمتد لاكثر من عقد من الزمان حينما اقدمت سلطات النظام السابق على نشر الجرذان في فوهات (منهولات) شبكات الصرف الصحي بقصد الانتقام من ابنائها ، ونحن الان بصدد القيام بمسوحات ميدانية لتحديد المناطق والقطاعات الاكثر تضررا بهذه القوارض ، ومن ثم عرضها على مجلس محافظة بغداد ووزارة الصحة لدراستها ووضع الحلول الناجعة للتخلص من هذه الظاهرة نهائيا .

قائممقام (مدينة الصدر الاولى) ذكر ان التعاون قائم بيننا وبين (مديرية الصحة العامة) لايجاد طريقة علمية لمكافحة هذه الافات القارضة والناقلة للامراض ، وقد اعددنا خطة تفصيلية للقيام بجولات تطهيرية تشمل جميع قطاعات المدينة وتبدأ بالقطاعات السبعينية التي تشهد انتشارا واسعا للجرذان ، وكذلك اصلاح وتطوير شبكة الصرف الصحي فيها ورفع اكداس النفايات والانقاض من ازقتها وشوارعها وحقن فوهات المجاري بالمبيدات والسموم وحث المواطنين على مكافحتها بكل الطرق المتاحة .

واخيرا .. الكلس هو الدواء

المهندس الزراعي (عدنان منشد) قال : تعد الجرذان من الحيوانات الذكية جدا ، فهي حالما تشعر بالخطر تغير ستراتيجيات مستعمراتها التي تنشئها تحت سطح الارض ، باشكال هندسية غريبة ودقيقة تشبه بيوت النحل وخلاياه ....

القوارض لا يمكن ابادتها بالسموم فقط ، وقد ارشدنا ذات يوم ، في تسعينيات القرن المنصرم لما كانت الجرذان تعيث في حقول الدواجن ،خبير بولوني الى ان نرش بقايا الاطعمة بمادة (الكلس اي الجص الناعم جدا) ، ونضع بجانبها صحوناً تملأ بالماء ، فتقبل عليها الجرذان بنهم وعند ارتشافها الماء ستبدأ عملية التكلس داخل امعائها تدريجيا ، وهكذا وبمرور الوقت ستنتفخ ومن ثم تنفق باعداد كبيرة ، بشرط تنوع الطعام المقدم لها ، وعدم اعتماد نوع واحد من الطعام لانها سرعان ما تكتشف اللعبة ، وان يكون هذا التنوع مختلفا ايضا امام كل فتحات الجحور ، وهذه الطريقة ليست كفيلة بالقضاء عليها تدريجيا وحسب ، بل تحول دون تكاثرها في تلك اللحظة تذكرت مقولة لفيلسوف هندي لا اتذكر اسمه مفادها : (ان انافس في حياتي جرذا حقيراً وانا الذي روضت الحصان القوي والرشيق والجميل والسريع والمتوثب والذكي قبل ان امتطي صهوته لهو أمر مخجل حقا) !!

المواطن (حيدر عبود) اشار الى ان وجود الجرذان بهذه الاعداد الهائلة في عموم مدينة الصدر لم يكن طبيعيا ، بل هو بفعل النزعة الاجرامية للنظام السابق الذي اراد الانتقام من اهالي المدينة الذين قاوموه وانتفضوا عليه في اكثر من مرة ما بين الاعوام (١٩٨٠ – ١٩٩١) ، ففي احد الايام من عام ١٩٩٦ ، خرج والدي في الصباح الباكر وكعادته في كل يوم لمزاولة عمله ، فرأى شاحنات كبيرة محملة بصناديق معدنية مشبكة وقد احاطت بها مجاميع عسكرية ومدنية مسلحة وهم يفرغونها في الفتحات الرئيسة لشبكات الصرف الصحي ، ولما دنا منهم احتجزوه وتم توقيفه أكثر من شهر ، بعدها اطلق سراحه . هذه الحادثة يتذكرها الكثيرون من أبناء المدينة وخاصة اولئك المطلعين على مجريات الاحداث انذاك ، وبمرور الزمن تكاثرت وانتشرت في جميع احيائها وقطاعاتها وبالاخص قطاعات (٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) ثم امتدت الى القطاعات الاخرى .